وهل الإيمان إلا الحب ؟

١

محبة الله تعالى

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

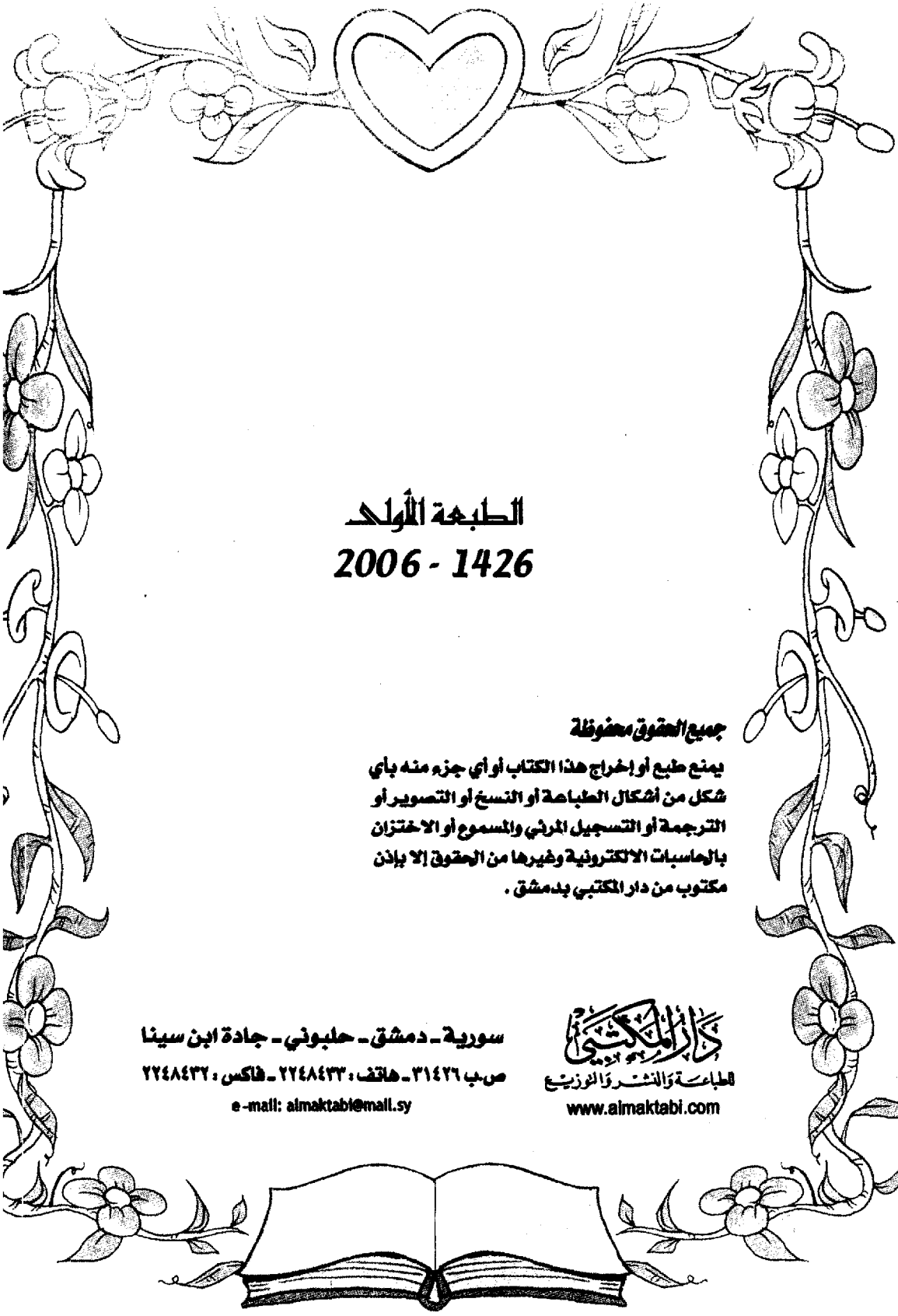

الطبعة الأولى

2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا

ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢

e-mail: almaktabi@mail.sy

إلى مكّة المكرّمة

أَعلنتْ إدَارةُ مَعْهَدِ تَحفيظِ القُرآنِ عن جَائزةٍ لِمنْ يُتِمُّ حِفظَ كِتابِ الله فِي العُطلةِ الصَّيفيَّةِ ، وَالجائِزةُ هِيَ السَّفرُ إلى الأَماكنِ المُقدَّسةِ ، وذَلكَ بِهَدفِ أَداءِ العُمرَةِ ، وكانَ لِذلكَ الأَمْرِ صَدًى وَاسِع.. وَزادَتِ المُنافَسةُ بينَ الطُّلاَّبِ..

وَفي أَواخرِ الصَّيفِ تَمَّ تَحْديدُ إجراءِ المُسابَقَةِ ، وَسجَّلَ المُشَارِكُونَ أَسْمَاءهُم ، واخْتِيرَت اللَّجْنَةُ التي سَتَقومُ بالامتِحانِ..

وَجَرَتِ الامْتِحانَاتُ على فَترَاتٍ مُتَقَطِّعةٍ مِنَ الأُسْبوعِ.. وَفي يَومِ الإثْنينِ أُعْلِنتِ النَّتائِجُ ، وَكانَ عَددُ الذَينَ أَتمُّوا حِفْظَ القُرآنِ الكريم كلّه (٣٠) ثَلاثينَ طَالِباً ، وَقدْ طُلِبَ مِنهُم مَعرِفة

أَحكامِ التَّجويدِ ومعرِفة مَعَاني الكلِماتِ الصَّعبةِ مِنَ القُرْآنِ.. وتبرَّع أحدُ المُحسِنينَ بكلِّ تكاليفِ حفلةِ التَّخرّج ، ونَدبَ المُديرُ ـ مُدير الدَّورة والمعهد ـ الحَاضرينَ إلى التَّسابُقِ في حِفظِ كِتَابِ اللهِ تَعالى ، وتحدَّثَ عن موعدِ رحلةِ العُمْرةِ إلى بيتِ اللهِ الحَرامِ في مكَّة المكرَّمة ، ومسجدِ رسولِ اللهِ ﷺ في المدينةِ المنوَّرةِ ، وهناكَ يزورونَ الأماكنَ المقدَّسةَ ويتعرَّفونَ على كلِّ ما لهُ علاقَةٌ بالرَّعيلِ الأوَّلِ.. ولمَّا كانَ يومُ الانْطِلاق ، تَجمَّعَ الفَائزونَ في ساحةِ المَسجدِ الكَبيرِ ، وَصلَّوا معَ مدرِّبيهم وَأساتِذتِهُم صلاةَ الفجرِ ،.. ثمَّ ركِبُوا في باصٍ حديثٍ ، وانطَلقُوا على بركةِ اللهِ تعالى.

وفي الطَّريقِ إلى مكَّة المكرَّمة تساءلَ الشَّابُّ الذَّكي (حسن) عن مسألةِ الشَّوقِ والمحبَّةِ التي يَحمِلُها المُسلمونَ في قلوبِهم لِتلْكَ الأَماكنِ

المقدَّسةِ ، وتساءلَ أَيضاً عن السِّرِّ في ذلكَ كلِّه؟

وَتولَّى مُدرِّسُ مادةِ السُّلوكِ والأَخْلاق ، الأُستَاذ (زَيْن العَابِدِين) الرَّدَّ على ذَلِك ، فَتوجَّه نَحوَ الطُّلاَّب الفائزين وقال:

إِنَّ أصلَ الحُبّ والمحبَّة أَمرٌ وَاحدٌ هُو العَلاَقَةُ بينَ العَبدِ ورَبّه ، وَبالتَّالي كما قالَ اللهُ تَعالى وهو يَصِفُ حالَ أحبابهِ مِنَ المُؤمِنين:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ولذلكَ ذكرَ اللهُ تَعالى الحديثَ عن الحُبِّ ـ في القُرآنِ ـ في أكثرَ من (٨٠) ثمانينَ مَوْضِعاً ، من ذلكَ قَولُه تَعالى عن المسجدِ:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وقَوله تَعالى وهُوَ يرسمُ المَنْهجَ الواضِحَ:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فَماذا عَنِ المَحبّة؟!

وَتابعَ الأستاذُ (زيْنُ العابِدِين) القولَ:

وَردَ في الكُتبِ السَّابقةِ ، أنَّ الله تَعالى أَوحى إلى عِيسى ابن مَريمَ عليهِ السَّلام: إنِّي إذا اطَّلعتُ على قَلبِ عَبدٍ فلمْ أجدْ فيه حُبّ الدُّنيا ، مَلأْتهُ من حُبِّي.

وَقالَ الإمامُ ابنُ قيِّم الجَوزيَّة: أَصْلُ العِبَادةِ محبَّة اللهِ ، بَل إفرادهُ بالمَحبَّةِ ، وأن يكُونَ الحبُّ كُله لله فَلا يحبّ معهُ سِواه ، وإنَّما يُحِبّ لأجلهِ ، وَفيهِ.. سَألَ الشَّابُّ الوَسيمُ (نَعِيم): وَماذَا يَعْني بِقَولهِ: (يحبُّ لأجْلِه ، وَفيهِ)؟

أَجابَ الأُستاذُ: يعني إنَّه لا يحبُّ شيئاً إلاَّ

بمَا يُرضِي الله ، فَمثلاً يحبُّ الكعبَةَ لأنَّها بيتُ اللهِ تَعالى، وَيحبُّ الوردةَ لأنَّها من صُنْعِ اللهِ.. وهكذَا.

ورَحِمَ اللهُ أبا بكْرٍ الكتَّاني عندمَا قالَ: جَرَتْ مَسألةٌ في المحبَّةِ بمكَّة أيَّامَ المَوْسمِ ، فَتكلّم الشُّيوخُ فِيها ، وكانَ الإمامُ الجُنَيد أَصغرهم سِناً ، فَقالوا لهُ: هَاتِ ما عندكَ يَا عِراقيّ ، فَأطرقَ رَأْسهُ ودَمَعتْ عَيْناهُ ثمَّ قال:

ذَاهبٌ عنْ نَفسِهِ ، مُتَّصِلٌ بذكرِ ربِّهِ ، قائمٌ بَأداءِ حقُوقهِ ، نَاظرٌ إليه بقلبِهِ ، أحرقَ قلبَهُ أَنوارُ هَواهُ ، وَصفَا شربهُ من كَأسِ ودِّه ، فإنْ تكلَّم فَبالله، وإن نَطقَ فعنِ اللهِ ، وإن تَحرَّك فَبأمرِ اللهِ، وَإن سَكنَ فمعَ اللهِ ، فَهوَ باللهِ ولله ومعَ اللهِ.

فبكَىَ الشُّيوخُ وقَالوا: مَا على هَذا مَزِيدٌ.

فَحقيقةُ محبَّة العَبدِ لربِّه أن ينْسَى حظَّهُ

وَينسَى حَوائِجَه ، ولا ينشَغل إلاَّ بذكرِ خَالِقِهِ ، كمَا قَالَ (سَحنونُ المُحِبُّ) رَحِمهُ الله تَعالَى:

فَكَان فُؤادِي خَالياً قبلَ حبِّكم
وَكانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلهُو وَيَمْرَحُ
فَلمَّا دَعا قَلبِي هَواكَ أجابَهُ
فلستُ أراهُ عن فَنَائِكَ يَبرحُ
رُميتُ ببَيْنٍ مِنكَ إن كُنتُ كاذباً
وَإنْ كُنتُ في الدُّنْيا بِغيرِكَ أَفرحُ
وَإنْ كانَ شيءٌ فِي البلادِ بأسْرِهَا
إذا غِبتَ عن عَيْني لِعينيّ يَملحُ
فَإن شِئْتَ واصِلني وَإن شِئْتَ لمْ تَصِل
فَلستُ أَرى قَلبي لِغَيْرِكَ يصْلحُ

مِن مَعَاني مَحبَّة العَبدِ لربِّهِ..

وَيقومُ (حُسين) من عَلى الكُرسيِّ وَيسألُ:

وَما هِيَ معَاني محبَّة العَبدِ لله تَعالَى؟ ويُسَرُّ الأستاذُ بهذا السُّؤالِ وَيقولُ:

أَجلْ فلمحبَّة العَبدِ لربِّه تَعالَى مَعانٍ كَثيرةٌ ، مِنْها: أنَ يعتقِدَ العبدُ أنَّ الله تَعالَى مُتفضّلٌ عليه بِنعمٍ لا تعدُّ ولا تُحصَى، لِذَلكَ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «أَحبُّوا الله لِما يَغْذوكُم من نِعَمِهِ ، وأَحبُّونِي بِحبِّ اللهِ ، وأَحِبّوا أَهلَ بَيْتِي بحُبّي».

وَلذلكَ حَضَّ اللهُ تَعالى عِبادَهُ على أن يَتَحدَّثوا عَن نِعَم اللهِ ، وَهذا من فَضَائلِ الإسْلامِ ، قَالَ اللهُ تَعالَى:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وَقالَ تَعالَى:

﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وَالتَّحدّث بِنِعَمِ اللهِ يتطلَّبُ شُكره سُبْحانَه وتَعالَى ، قَالَ تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وَبَادرَ الأُستاذُ (نُور الهُدى) إلى القَولِ: وَلقدْ دَخلَ عطاءٌ على أمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فَقالَ: أخْبِريني بأَعْجَبَ مَا رَأيتِ منْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَبكَتْ وَقالتْ: وَأيّ شَأْنه لم يكُن عَجباً؟ أَتاني لَيلةً فدَخلَ معي في لِحَافي، ثمَّ قالَ: «يَا ابنةَ أبي بَكْرٍ ذَريني أَتعبَّدُ لربِّي، فَقُلتُ: إنِّي أُحِبُّ قُربكَ، لكنِّي أُوثِر هَواكَ.. فَقامَ إلى قِربةِ مَاءٍ، فَتوضّأ، ثمَّ قامَ يُصلِّي، فبكَى حتَّى سالتْ دُموعُه على صدرِهِ، ثمَّ ركعَ فبكَى، ثمَّ سجدَ فبكَى، ثمَّ رفَع رأْسَهُ فبكَى، فلم يَزلْ كذلِكَ يَبْكي حتَّى جَاءَ بلالٌ فآذنَهُ بالصَّلاةِ، فَقلتُ: يا رسولَ الله، ما يُبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ مَا تقدَّم من ذَنبِكَ وَما تأخَّر؟ قالَ: «أفَلا أَكونُ عَبداً

شكُوراً؟ ولِمَ لا أَفعلُ ذلكَ وقدْ أَنزلَ اللهُ عليَّ قولهُ:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

ومِن مَعَاني المَحبَّةِ أَيضاً ـ تابعَ الأُستاذُ (زينُ العَابدين) ـ الرِّضا بكلِّ ما جاءَ من عندِ اللهِ، حتَّى لو كانَ ظَاهرُه مُصيبَة أَو ماهُنالِكَ، لأنَّ المَسألةَ كلّها من عِندِ اللهِ، كَما فِي قَولِهِ سُبْحانَه:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ

مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

[البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وَمن مَعَاني محبَّة العَبدِ لربِّه سُبحَانَهُ وتَعالى الحِرْص على أداءِ فرائِضه ، وسَماعِ كلّ كلامِه ، وَهذا مَعنى طاعَتِهِ سُبْحَانه وتَعالَى ، وإلاَّ ما الفَائِدَةُ مِن لقلقةِ اللِّسانِ بِحبِّ اللهِ وطاعتِهِ ، ثُمَّ ترَى العَملَ يُخالفُ ذَلِكَ كلّه ، مِصْدَاقُ ذلكَ قولُ الشَّاعر:

تَعْصِي الإلَهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّه
هَذا لعَمْرِي في القِياسُ شَنِيعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطعتَهُ
إنَّ المُحِبَّ لمنْ يُحِبُّ مُطيعُ

وَعندَها يُصبحُ العبدُ لايرَى إلاَّ ربَّه ، فيُحبُّ مَا أحبَّهُ الله ، ويبغضُ ما أبغَضهُ الله ، وَيفعِلُ الخَيرَ كلّه ، ويَرفضُ كلَّ ما يُشغلُ عَنِ اللهِ ، وَلا يخافُ إلاَّ اللهَ وحدَهُ..

وَمن مَعاني محبَّة العَبدِ لربِّه أن يُفوِّضَ الأمرَ كلَّه له ، ويُسلّم كلّ حوائجِهُ لهُ أيضاً ، وَيتوكَّلُ فِي كلِّ أمرٍ عليهِ وَحدَه ، مِصداقُ ذَلكَ ما رَواهُ البَراءُ بنُ عَازبٍ رَضيَ الله عنهُ قَالَ: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «إذا أتيتَ مَضْجَعكَ ، فَتوضَّأ وضوءكَ للصَّلاةِ ، ثمَّ اضطجِعْ على شقِّكَ الأَيمن ، ثُمَّ قُلِ: اللَّهمَّ أَسلمتُ وَجْهِي إليكَ ، وفوَّضتُ أَمْرِي إِليكَ ، وألجأتُ ظَهرِي إليكَ ، رَغبةً ورَهبةً إليكَ ، لا مَلجأَ ولا مَنْجَى مِنكَ إلاَّ إليكَ ، آمنتُ بِكتابِكَ الَّذي أنزَلتَ ، ونبيِّك الَّذي أرْسَلتَ».

وَأن يفرحَ العَبدُ بفَضلِ اللهِ تَعالى وَالإقبَال عَليهِ ، مِصْدَاقُ ذلكَ قولُه تَعالى:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وَمن مَعَاني مَحبَّة العَبدِ لله الإكْثارُ من ذِكْرِهِ سُبحانَه ، وَمعنَى ذَلكَ أَن يَنْظرَ الإنسانُ حَولهُ ، فَيتفكَّرَ في عَظَمةِ اللهِ وعَدْلهِ ورَحْمَتِه وبَديعِ خَلقِه ، فيُحبّه فيذكُرُه دائماً ، مِصداقُ ذَلكَ قولُه تَعالَى:

﴿ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

لَكِن مَا هُوَ الدَّليلُ عَلى صِدْقِ محَبَّة العَبدِ لربِّه؟

سَألَ (مُعتزٌّ): عن ذلكَ ، فَأجابَ الأستاذُ (نورُ الهُدى) بِقولهِ:

هناكَ عَلاماتٌ عديدةٌ ، منَها:

١ ـ أَن يفعلَ الخَيْرَ يَبْتَغِي بهِ وجْهَ الله عزَّ وجلَّ.

٢ ـ أَن يُحبَّ كلَّ ما يُحبّه الله ، وَأن لا يُبْغِضَ إلاَّ ما يُبغِضُهُ اللهُ.

٣ ـ أَن يَسيرَ على نَهجِ رسولِ الله ﷺ وَيكثرَ من اتِّباعِ سُنَّتِه ، ويَتفقَّدَ مَواطِنَ محبَّتِه ، مصداق ذَلكَ مَا رواهُ أنسُ بنُ مَالكٍ رضيَ الله عنهُ: أنَّ رَجلاً سَألَ النَّبيَّ ﷺ: متَى السَّاعةُ يا رسولَ الله؟ قالَ: «ما أَعددتَ لهَا؟» قَالَ: ما أَعددتُ لها من كَثيرِ صَلاةٍ وَلا صَومٍ ولا صَدَقةٍ ، وَلكنِّي أُحبُّ اللهَ ورسولَهُ ، قالَ: «أَنتَ معَ مَنْ أَحْبَبتَ يومَ القِيامةِ».

وتَمتمَ الأُستاذُ (زينُ العَابدين) بدُعاءٍ قالَ فيهِ: اللَّهمَّ ارزقْنا حبَّكَ ، وحُبَّ من يحبُّكَ ، وَحبَّ كلّ عَملٍ يقرّبنا إلى حُبّكَ...

ثمَّ التفتَ إلى الطُّلابِ الفَائزينَ وقَالَ: هَنيئاً لكُم يَا حَمَلَةَ كِتابِ الله تَعالى، فَبعدَ سَاعاتٍ سَنكونُ

في بَيتِ اللهِ الحَرامِ ، وَسَنزورُ الأَماكِنَ المُقدَّسةَ ، وَهناكَ سَتذْكرونَ مَواقِفَ رَسولِ الله في العَهدِ المكِّي.. ، وسَتَرونَ بأمِّ أعينكُم لا تَسألُوا عَن سَببِ البُكاءِ.. أو عن سَببِ عَدمِ الإحساسِ بالتَّعبِ.. فَالحبُّ يُنسي كلّ شيءٍ.. وَمادامَ العبدُ مع ربِّه.. فَلا شيء بعدَ ذلكَ يُسعِد:

١ ـ أَنتَ أُنسِي وَمُنيتي وَسرُورِي
قَدْ أَبَى القَلبُ أَنْ يُحبَّ سِواكَا

٢ ـ يَا عَزِيزِي وَمُنْيتي واشْتِياقِي
طَالَ شَوقِي مَتَى يَكُونُ لِقَاكَا

٣ ـ لَيسَ سُؤْلي مِنَ الجِنَان نَعِيماً
غَيرَ أنِّي أُريدُهَا لأَراكَا

والحَمدُ للهِ ربِّ العَالَمِين